المفاهيم المؤسسة لفلسفة الحياة لدى برغسون

أ. براشد بخدة/ المركز الجامعي(غليزان)

تندرج فلسفة برغسون ضمن تيار فلسفي مناهض للفلسفة العقلانية والنزعات المادية والعلمية، ومؤسس لرؤية فلسفية ترنو إلى الانسجام مع تيار الحياة المتدفق بعيدا عن تجريدات العقل، و مجاوزة قوانين العلم التي صيغة لفهم المادة، لذلك ومن أجل فهم و إدراك حقيقة الموضوعات الكيفية، والتي تتطلب منهجا يتناسب مع خصوصيتها، من هذا المنطلق انصب الاهتمام في فلسفة برغسون على بناء جملة من المفاهيم مناسب لدراسة قضايا ميتافيزيقية، كالحرية، والمطلق والأخلاق، وهنا أبدع برغسون منظومة مفاهيمية تجمع بين الفكر والحياة في ديمومتها، في مقدمتها الحدس كمنهج خاص بدراسة الموضوعات الكيفية .

الحدس:

إن الحدس عند برغسون يختلف و يتميزعن كل أنواع الحدس في نقطة البدء التي بدأ منها وفي المجال الذي أراد برغسون أن يكون الحدس إدراكا له، فبرغسون قدم لنا الحدس باعتباره الملكة الخاصة بادراك الزمان الباطني أو الزمان الشعوري أو مجرى حياتنا الباطنية، فالحدس عنده هو " القوة التي نعرف بها الزمان الحقيقي أو الديمومة التي يجب أن لا نخلط بينها وبين زمان الساعات الفضائي"[1]، بل إن برغسون وسع مجال استخدام من ميدان استخدام الحدس، فلم يعد يدل عنده فقط على إدراكنا المباشر لمجرى حياتنا الباطني [2].

ومن هنا اعتمد برغسون الحدس كمنهج يلج من خلالها للمعرفة إذ يعتبر" أن الحدس وحده ملك متوج على عرش المعرفة الإنسانية، يملك القدرة، ويملك الوجود والحياة"[3]، من هذا التصور للمعرفة الحقة التي لا تتم إلا من خلال الحدس الذي بإمكانه تجاوز كل الحواجز العقلانية والمادية التي تحول بننا وبين الحقيقة.

فمن خلال دراسة برغسون لعلوم الحياة من جهة، والجبرية والحرية من جهة أخرى، شكل لدى برغسون موقف مناهض للإيمان المطلق بالعقل، معتقدا انه عاجز عن تفسير الواقع والحقيقة، معلنا أن الفلسفة لن تتقدم إلا إذا امتثلت للحدس كمنهج معتقدا انه نور فطري.

إن الحدس كما عبر عنه برغسون هو المباشر باعتباره أعلى من العقل، وهو الإدراك الباطن الذي فيه ننفذ إلى صميم ديمومتنا النفسية، وطابعه ليس إدراكا حسيا و انه مباشر ومشاركة مباشرة في الوجود وتوحد مع ما يتم حدسه، وهو نفاذ إلى الشيء الخارجي للتوحد مع ما لا يمكن التعبير عنه من ذلك الشيء، يقول برغسون في كتابه" الفكر والمتحرك":" نحن نطلق لفظ الحدس على تلك المشاركة الوجدانية التي بمقتضاها ننفذ إلى باطن أي

---

[1]-. François Meyer, pour connaitre Bergson, Bordas, Paris, 1985, p.69.

[2]– يحي هويدي،مقدمة عامة في الفلسفة، دار الثقافة ، القاهرة، ط9، 1989، ص152.

[3] – مجاهد عبد المنعم مجاهد، مدخل إلى الفلسفة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، ب ط، ب ت، ص129.

موضوع لكي نتطابق مع ما في ذلك الموضوع من أصالة فريدة"، ويضيف في الكتاب نفسه " الحدس في صميمه عبارة عن فعل بسيط "[1].

إن الحدس بمعناه البرغسوني يتميز عن الفهم في بحثه عن الحقيقة سواء المعرفية أو الأخلاقية،لأن " الفهم عند برغسون قوة نستطيع أن نصنع بها الأدوات سواء كانت مادية أو عقلية، ولكننا لا نستطيع أن ننفذ بها إلى باطن الأشياء"[2]، لذلك يتموضع كمقابل له، فالحدس عند برغسون قوة تستطيع أن تدرك الصيرورة، وهو القوة التي نعرف بها الزمان الحقيقي أو الديمومة، فهو يقودنا إلى منطقة الأنا العميق، الذي يحاول المجتمع وتسعى اللغة لإخفائه عنا، والذي لا يعبر عنه شيء كم يفعل الفعل الحر.

إن هذا الإلحاح من برغسون على أهمية الحدس، نابع من إدراكه الصفة المتحركة، غير القابلة للقياس، التي تتصف بها أعظم أحاسيس الإنسان، الإحساس بالمكث الداخلي، واقتنع إزاء هذا الإحساس، بان الجزء المعلل في العقل جزء لا حول ولا طول له، لأن هذا الجزء إنما يستطيع أن يحصي ويجمع ويطرح ويضرب ويقسم، لكنه لا يستطيع أن يحس، لأن الإحساس يختص به قسم آخر من العقل هو الإلهام[3].

إلا انه رغم إهمال العقلانيين للحدس، إلا أن برغسون أعاد له مكانته و دوره في البحث عن الحقيقة، فالحدس إذا استخدم – في تصور برغسون – هو في الحقيقة الأداة الوحيدة للنفاذ إلى قلب الحقيقة[4].

إذن الحدس يعتبر مجاوزة للمعرفة العقلية الإستاتيكية الجامدة الميتة النسبية السطحية التحليلية، معرفة العلماء، لأن القوانين العلمية تتصف بذلك كله، في مقابل ذلك يقدم برغسون الحدس كضرب من التجربة المباشرة من الأشياء، ينقل إلينا الحياة الكلية للشيء، دون التجاء إلى التحليل، أو التفتيت الذي يجعلنا نعيش، في جو من التعاطف مع الشيء موضوع المعرفة، فالحدس إذن معرفة تفوق المعرفة العقلية وتسمو عليها وهو خاص بالمعرفة الفلسفية[5].

أراد برغسون بالحدس الفلسفي، كجهد روحي يبذله الفيلسوف للتعاطف مع الأشخاص والأشياء، أن يصل إلى الحقائق العميق للوجود، والى المطامح التلقائية للفرد، والى ما سماه وليم جيمس " سر الحياة "، وهذا التعاطف ضرورة لبلوغ الحقيقة، أليس السبيل الوحيد إلى فهم الأشخاص أن نعطيهم شيئا من أنفسنا أي أن نحبهم.

---

[1] – الربيع ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين المطلقية والنسبية، الشركة الوطنية للتوزيع النشر،الجزائر، ب ط، ب ت، ص 79.

[2] -François Meyer, pour connaitre la pensé de Bergson, p.20.

[3] – هنريتوماس ، دانالي توماس، مرجع سابق الذكر، ص450.

1– المرجع نفسه ، 451.

[5] – يحي هويدي، مرجع سابق، ص 154..

لذلك قال "جيل دولوز"أن الحدس هو منهج البرغسونية والحدس ليس عاطفة ولا إلهاما، أو انجذابا مشوشا. بل هو منهج معد، و حتى احد مناهج الفلسفة الأكثر إعدادا له قواعده الصارمة، التي تشكل ما يسميه برغسون " الديمومة " في الفلسفة[1]، صحيح أن برغسون يلح على التالي، أن الحدس كما يفهمه منهجيا يفترض الديمومة،" كانت هذه الاعتبارات حول الزمان حاسمة، ودرجة بعد درجة، رفعت لنا الحدس إلى مقام منهج فلسفي، والحدس كلمة ترددنا أمامها طويلا وكتب إلى (هوفدينغ) إن نظرية الحدس التي تشدد عليها أكثر بكثير مما على نظرية الزمان لم تظهر إلا بعد هذه الأخيرة بزمن طويل" [2].

لقد أصاب برغسون حين نبه أذهان الفلاسفة إلى هذه الطريقة الجديدة من طرق المعرفة، لأن العقل لا يستطيع أن يقوم بكل شيء، و لأن هناك ميادين كثيرة يفسدها العقل بتدخله فيها أو بعبارة اصح يفسد حيويتها وحركتها، فيأتي الحدس ويقوم بما يعجز عنه العقل، وكثيرا ما قيل أن برغسون قد استبدل الحدس بالعقل، أي أنه ألغى وجود العقل إلغاءا تاما، ولكن هذا غير صحيح، إذ أنه لا توجد فلسفة تجعل مهمتها إلغاء العقل وبرغسون يصرح بأن " الحدس ضرب من ضروب التفكير"[3].

إن الحدس البرغسوني لا يدخل في باب العاطفة، وإنما هو عملية ذهنية تدرك الأشياء إدراكا مباشرا وتقدم لنا بخصوصها معرفة (مطلقة) تختلف عن تلك المعرفة النسبية التي يعطيها لنا العلم وتنقلها لنا في حركتها وتغيرها و صيرورتها، أي انتقالها من حال إلى حال[4]، وهو "نوع من المعرفة الموضوع يعطى فيها مباشرة وبصورة غير قابلة للتحليل"[5].

الديمومة:Durée

الديمومة هي الزمان، فإذا أطلقت على الزمان المحدد سميت مدة، و إذا أطلقت على الزمان الطويل الأمد سميت دهرا لأن الدهر هو الأمد الدائم، أو مدة العالم، وهو باطن الزمان، و به يتحدد الأزل و الأبد بهذا المعنى عرفها الجرجاني، ومن معاني الديمومة أنها تطلق على جزء من الزمان المطلق فتكون حينئذ زمان فعل أو زمانا فاصلا بين فعلين، ويكون الزمان المطلق محيطا بها إحاطة الكل بالجزء[6].

لقد ميز برغسون بين الزمان الفيزيائي والزمان الحي المباشر الذي يصفه بالديمومة، وتعني الديمومة بالنسبة إليه الزمان الحي كما هو معطى للوعي بشكل مباشر بوصفه يمثل إبداعا متواصلا لصور لم تكن موجودة

---

[1] – جيل دولوز، البرغسونية، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997م، ص05.

4 – المرجع نفسه، ص 07.

[3] – هنري برغسون، الفكر والمتحرك، ترجمة: سامي الدروبي، مطبعة الانشاء، دمشق، ب ط، ب ت، ص 95.

[4] – يحي هويدي، مرجع سابق الذكر، ص 155.

[5] – سعد الدين السيد صالح، قضايا فلسفية في ميزان العقيدة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1998م، ص 145.

[6] – جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ب ط، 1982م، ص 571.

من قبل أما الديمومة الخالصة فهي بمثابة الذات التي تغوص في أعماقها السحيقة لتستشعر كل تجليات حياتها الخاصة[1].

لذلك تعتبر الديمومة جوهر ومنطلق الفلسفة البرغسونية في كل أبعادها الأنطولوجية، المعرفية، والأكسيولوجية، لذلك كتب محددا إياها كأساس لنظريته الفلسفية قائلا" إن كل تلخيص لنظرياتي من شأنه أن يشوهها في مجموعها، ويعرضها، في رأي، بعد ذلك إلى عدة انتقادات، اللهم إلا إذا نقذ الباحث منذ البداية وعاد دائما إلى المبدأ الذي أعده محور مذهبي بأكمله ألا وهو رؤية الديمومة "[2].

وذلك نابع من اعتقاده بأن " الديمومة كامنة (...) في مجموع الكون وهي تمتد حتى تصل إلى اصغر جزء من أجزاء العالم الذي نعيش فيه"، فالكون إذن ذو ديمومة وكلما تعمقنا في طبيعة الزمان أدركنا أن معنى الديمومة هو الاختراع، وإبداع الصور، و إعداد الجدة إعدادا متصلا "[3].

الديمومة هي الزمان الشعوري أو الزمان السيكولوجي، باعتباره وحده هو الزمان الحقيقي، و كانت النتيجة لهذا الاهتمام أن استبدل برغسون بالواقع حقلا جديدا هو حقلا الزمان السيكولوجي وقال عنه إنه يمثل الواقع عنده، إن برغسون قد عاب على الفلاسفة أنهم أهملوا الزمان الشعوري واهتموا بالمكان الزماني، أي اهتموا بالزمان الأداتي أو المادي[4].

أهم ما يتصف به الزمان الباطني هو الديمومة أي الاستمرارية في صيرورة لا تنقطع لأنها تعبر عن تيار الحياة المتدفق، إنه زمان لا يخضع للقياس الذي يخضع له الزمان الآلي، إن لحظاته في تجدد مستمر دائما، وتتعاقب الوحدات منها تلو الأخرى في جدة متواصلة غير قابلة للإعادة، على عكس الزمان الآلي الذي يمكن نعيد مجراه. إنه زمان لا صلة له بالمكان لأنه خاص بمجرى الحياة الشعورية أو " المعطيات المباشرة للشعور"[5].

لذلك يعتقد " غاستون باشلار" أن البرغسونية أبقت مكانا للتضامن بين الماضي والمستقبل، حيث جعلت من الماضي جوهرا للحاضر، أو بكلام آخر لا يكون الآن سوى ظاهرة الماضي، وعلى هذا المنوال ، في علم النفي البرغسوني، يفسح الزمان الممتلئ، العميق، المتواصل، الغني، مكانا للجوهر الروحي[6].

إن "الوقائع المباشرة للوجدان " تشهد بأن الحياة النفسية تيار غير منقطع من الظواهر المتنوعة، أي تقدم متصل من الكيفيات المتداخلة، بخلاف الظواهر المادية، التي هي كثرة من الإحداث المتعاقبة، والحياة النفسية

---

[1] – هنري برغسون، المعطيات المباشر للشعور، ترجمة: الحسين الزاوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009م، ص 216.

[2] – مراد وهبة، مرجع سابق الذكر، ص77.

[3] – هنري برغسون، التطور المبدع، ترجمة: جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ب ط، 1981م ص17.

[4] – يحي هويدي، مرجع سابق الذكر، ص155.

[5] – المرجع نفسه، 153.

[6] – غاستون باشلار، جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1992م، ص14.

التلقائية، فإنها انبعاث من باطن وخلق مستمر " ديمومة "، لا تحتمل رجوعا إلى الماضي وعودة ظروف بعينها، ولا توقعا للمستقبل ضروريا، كما تحتمل الظواهر المادية[1].

إن هذا التصور الجديد للزمان، جعل من حدس الديمومة تعلم طريقة عامة في الرؤيا، كمبدأ لنوع من التحويل البرغسوني للأشياء، وفي ما يسمى ذاتا، وما يسمى موضوعا، وحتى في ما يسمى مكانا، لأن بدأ يرى ارتسام مكان من الداخل، امتداد، هو العالم حيث يمشي "أخيل" (...) مثل اللحن- يقول برغسون تنظيمات- ليست إلا طريقة ديمومة معينة[2].

فلم تعد الديمومة توحي فقط بالتغير والصيرورة الحركية، إنها تعبر عن الكائن بمعنى الكلمة الفاعل والحي، لم يوضع الزمان محل الكائن(...) وينبغي الآن تناول الكائن كاملا من جهة الزمان[3].

إن الإنسان بهذا المعنى مأخوذ في ديمومته يدركها كشخص، لأنها تتجاوزه، لديه فكرة عنها لا يمكن تصورها أوثق ولا أقرب، وبذلك ليست المعرفة تحليقا فوق إنهاتلازم[4].

إن الديمومة بهذا المعنى جعلت من الصيرورة جوهر فلسفة برغسون، فالروح في الطبيعة ليست بمثابة شيء يحل في شيء آخر، وكل كائن حي هو في جوهره زماني، يتصف بالصيرورة التي تعني تطور الكائن وانتقاله من مرحلة إلى أخرى وخضوعه لحكم الزمن، و مروره بأطوار يأتلف منها تاريخ واحد متصل، فالحقيقة الأولى هي إذن الصيرورة لا الوجود ، والتغير لا الثبات، وما دام الزمان هو نسيج الواقع فان التطور حقيقة ثابتة.

الدافع الحيوي:

يقع الدفع الحيوي في مقدمة تفكير برغسون الفلسفي، معتقدا أن الحياة عملية أساسية أكثر من المعرفة، الحياة عملية غير منفصلة، متصلة، لا تتوقف، نوع من حركة كونية، تؤلف نحن تعبيرات عنها أكثر مما تؤلف أجزاء منها، وعلى هذه الصورة، نحن كلنا مدفوع بهذا الدفع الحيوي، والحياة هي الواقع الأساسي لا الذهن أو المادة، نشعر بها في ذواتنا من خلال الخبرة المباشرة الآنية، ونشعر بها في الآخرين بواسطة التعاطف أو " الحدس"، كشعور مباشر بالحياة ذاتها، يختلف بصورة واضحة عن نشاط العقل الذي هو عملية مصطنعة لتمثيل الأشياء بصورة رمزية خارج ذاته، وعلى هذا الأساس يكون العقل أيضا بعيدا عن الواقع الأساسي، وأليفا للجمادات التي يفصلها عن التيار المستمر للخبرة والحافز[5].

---

[1] - يوسف كرم، مرجع سابق الذكر، ص 418.

[2] - موريس ميرلوبونتي، تقريض الفلسفة، ترجمة: قزحيا خوري، منشورات عويدات، بيروت، ط 1 ، 1983، ص 219.

[3] - المرجع نفسه ، ص 219.

[4] -المرجع نفسه، ص 218.

[5]- مورتون وايت، عصر التحليل ، ترجمة: أديب يوسف شيش، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ب ط، ب أ، ص 69.

ونظرا لاعتقاد برغسون أن الحياة عملية أساسية أكثر من المعرفة، الحياة عملية غير منفصلة، متصلة، لا تتوقف، نوع من حركة كونية، تؤلف نحن تعبيرات عنها أكثر مما نؤلف أجزاء منها.وعلى هذا الأساس فنحن كلنا مدفوعون بهذا الدافع الحيوي. باعتبار أن الحياة هي الواقع الأساسي لا الذهن أو المادة، نشعر بها في ذواتنا من خلال الخبرة المباشرة الآنية، ونشعر بها في الآخرين بواسطة التعاطف أو الحدس[1].

إن الحياة في رأي برغسون، "لا تسير إلى المنطق، وهي قد تخطئ أحيانا، وقد تتجمع قواها في ممرات مسدودة أو قد تعود إلى الوراء أحيانا"[2]، ومع كل ذلك فإن الإندفاعة الحيوية الكلية على مستوى الكون تستمر في مسيرتها وتبقى قائمة ومن أجل أن تزدهر الحياة فإن الدفعة الحيوية تفرع نفسها إلى فروع متعددة.

هناك أولا الانقسام الكبير إلى عالم نباتي وعالم حيواني، وتتراكم الطاقة عند النبات تراكما مباشرا، ليقوم الحيوان بالنهل منها، ليحولها إلى مادة يتفجر منها العمل الحر، ولكن النبات مربوط بالأرض، ووعيه ثقيل، ولا يبدأ الوعي في التيقظ إلا في عالم الحيوان، ثم تقوم الدفعة الخلاقة مرة أخرى بتفريع نفسها في عالم الحيوان في اتجاهين مختلفين، كما لو كانت تحاول بناء منهجين مختلفين، في الاتجاه الأول تصل إلى الاكتمال في عالم الحشرات الاجتماعية، مثل النمل والنحل، وفي الاتجاه الثاني تصل إلى الاكتمال في النوع الإنساني.

من الجهة الأولى تسعى الحياة إلى امتلاك الحركة السريعة والمرونة عن طريق الغريزة، أي ملكة استخدام الأدوات، أو الأعضاء العضوية، بل وخلقها خلقا، والغريزة تعرف موضوعاتها عن طريق التعاطف ومن الداخل وهي حين تعمل تقوم بذلك بغير خطأ وعملا واثقا، ولكن عملها دائما على وتيرة واحدة، أي " واحدي الطريقة "[3].

أما عند الحيوانات الفقرية ، فإن الأمر مختلف حيث يبدأ الذكاء أو العقل ينمو، في مقابل الغريزة، والعقل هو ملكة الصنع الأدوات غير العضوية، والعقل بحكم طبيعة جوهره العميق يتجه ليس إلى الأشياء بل إلى العلاقات، لذلك فإنه، لا يعرف موضوعاته من الداخل بل يعرفها من الخارج.

وفي يظهر الحدس أخيرا في الإنسان، وإن كان لا يظهر إلا على صورة دفعات سريعة نادرة، وفي الحدس تصبح الغريزة بغير واجب عملي تؤديه وتصير قادرة على التأمل في ذاتها، ومن ناحية أخرى فإن الإنسان حر، وهكذا فان خط التطور سينتهي إلى تحرير الوعي عند الإنسان، ويظهر الإنسان وكأنه الغاية النهائية من تنظيم الحياة على كوكب الأرض[4].

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 70.

[2] – بوشنسكي ا.م، الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة: عزت قرني، عالم المعرفة، الكويت، ب ط، 1992م، ص 149.

[3] – المرجع نفسه ، ص 150.

[4] – المرجع نفسه ، ص 151.

الميتافيزيقا :

يعتبر برغسون من الفلاسفة الذين عملوا على رد الاعتبار إلى الميتافيزيقا كمجال بحث خاص للفلسفة، وتحريرها من ذلك الجمود الذي جعل الناس يعرضون عنها واكتسابها حيوية تحببها إلى النفوس وتقربها إلى الأذهان، خاصة بعد الهجمات التي المتوالية التي تعرضت لها من قبل الفلسفات الوضعية والعلمية.

لذلك نطرح التساؤل التالي: كيف فهم برغسون الميتافيزيقا؟ وما أهميتها في فلسفته؟، بداية يجدر بنا الإشارة إلى أن برغسون فرق بين طريقين للمعرفة، ميز بين مجال العلم، ومجال الفلسفة، معتقدا أنه هناك طريقين لتحصيل المعرفة، الطريق العلمي بأدواته وتحليلاته ومختبراته، وطريق الميتافيزيقا بما لها من حدس نافذ، ودائرة العلم هي دائرة المادة ودائرة الكم والامتداد والمكان، ومنهجها هو التحليل، وأداتها العقل، بينما دائرة الفلسفة هي دائرة الروح، دائرة الكيف والتوتر، والزمان والديمومة ومنهجها هو التعاطف الروحي وأداتها هي الحدس الذي يقوم الإنسان بواسطته بضرب من ضروب الفحص الروحي للواقع يستطيع معه أن يحس بنبضات قلب الواقع، يقول في المدخل إلى الميتافيزيقا " إذا قارنا التعريفات المختلفة للميتافيزيقا بعضها ببعض والمفاهيم المختلفة للمطبق بعضها ببعض أيضا تبينا أن الفلاسفة على الرغم من ظاهرة اختلافهم متفقون على التفريق بين طريقين للمعرفة مختلفين جدا، الأول عبارة عن الإحاطة بالمطلوب، والثاني عبارة عن النفاذ إلى صميمه، والأول يختلف باختلاف وجهات نظرنا، وباختلاف ما نعبر به من الرموز، والثاني لا يدرك من وجهة ولا يعتمد على أي رمز، ويقال أن المعرفة الأولى تقف عند النسبي والثانية يقال عنها حيث تكون ممكنة إنها تصل إلى المطلق"[1].

في هذا القول يميز برغسون بين طريقتين للمعرفة مختلفتين، الأولى تدور حول الشيء وتنظر إليه من زوايا مختلفة، ويعبر عنه بالرموز أو غيرها، أما الطريقة الثاني فهي نفاذ إلى صميم الموضوع وسبر لأغواره والوصول إلى الحقيقة النهائية، أي الوصول إلى المطلق.

الطريقة الأولى هي طريق العلم ، أما الثانية فهي طريق الميتافيزيقا، وكلتاهما في تصور برغسون مشروعتين وسائغتين، فبينما تكون معرفة العلم متوقفة على وجهة النظر التي يتخذها الإنسان وعلى الرموز التي يغبر بها عنها، فإن المعرفة الميتافيزيقية تسعى إلى التخلص من كل رمز ومجاوزة كل وجهة نظر خاصة، وتسعى إلى تخطي تصوراتنا نفسها للوصول بوجه ما إلى المطلق، والميتافيزيقا تريد أن تسلمنا من الداخل الحقيقة التي يقدمها لنا العلم من الخارج متجزئة، متفرقة.

---

[1] – إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2005،ص 190.

ويدعونا برغسون إلى ضرورة عدم الخلط بين الطريقين، طريق المادة، وطريق الروح، بين الانفصال والاتصال، بين المكان والزمان، بين العقل وبين الحدس، بين الساكن والمتحرك، بين التحليل والتعاطف الروحي.

هكذا من خلال هذا الفصل والتمايز الذي وضعه برغسون بين حقل المادة وحقل الروح، وقف على حقيقة الشعور الإنساني الذي بإمكانه أن يدرك الحركة ذاتها وان يحس بنبضات الحياة، ذلك أنه يعتقد أن " الشعور العادي للإنسان يدرك الحركة لأنه ينظر إليها من الداخل"، على خلاف العلم الذي ينظر إليها من الخارج، لذلك فهو لا يرى إلا خارج الأشياء، أما الشعور أو الوعي فإنه يدرك الأشياء من البطن، وهو لهذا يرى باطن الأشياء إن لم نقل روحها[1].

إن الميتافيزيقا بهذا المعنى تمدنا بمعرفة تنفذ إلى باطن الشيء وهي لهذا معرفة مطلقة، وشتان بين المعرفتين، إن الفارق بينهما هو نفس الفارق بين شخص يصف مدينة ما من الخارج، وشخص يعيش في قلبها، ويجوس خلال شوارعها ويجوب متاجرها ويتعرف عليها من الداخل، وهو نفس معرفتك بشخص ما حين تقتصر على النظر إليه من الخارج، فتصف أفعاله وحركاته، وبين أن تنفذ إلى باطن ذلك الشخص عن طريق الحب، إنك في الحالة الأخيرة تدرك صميم وجوده، وتنفذ إلى ماهيته ذاتها، أو بين أن تحصل عليها من أصدقائه العالمين بباطنه، والعالمين بدقائق نفسه الدقيقة[2].

لقد شن برغسون حملة عنيفة على جميع المذاهب التصورية التي أحالت الميتافيزيقا إلى مجرد براعة منطقية في التلاعب بالمفاهيم ومضاربة الأفكار بعضها ببعض، ويرى أننا إذا أردنا للميتافيزيقا أن تكون مظهرا جادا من مظاهر النشاط العقلي " فلابد من أن ندير ظهرنا لذلك العقل التصوري الذي يجعلنا بارعين في التحدث عن كل شيء على سبيل الظن والتخمين لكي ننفذ إلى صميم الواقع بواسطة " جهد حدسي " قوامه قلب الاتجاه العادي لنشاطنا الفكري"[3]والواقع انه لا سبيل إلى تحصيل معرفة ميتافيزيقية حقيقية إلا بالعدول عن التصورات والالتجاء إلى الحدس وكل محاولة يراد بها فهم الوجود عن طريق طائفة من التصورات – والتصورات عادة آلية مكانية – لابد أن تفضي بنا إلى مذاهب ميتافيزيقية متهافتة قوامها تفسير الحياة والروح بالرجوع إلى أداة ميكانيكية يستخدمها المرء للتصرف في المادة، فالميتافيزيقا الحقيقية إذن، إنما هي تلك التي تعدل عن كل براعة لفظية وكل نزعة تصورية لكي نقوم بعملية انتباه شاقة نستغني فيها عن كافة الرموز لكي تمضي إلى الأصل نفسه، محاولة أن تنفذ إلى صميم حياته الباطنية.

وبرغسون بوصفه منتميا إلى تراث الفلسفة الفرنسية الذي يأخذ بالثنائيات، يرى أن الذهن (الذكاء) و الحس (العيان) مختلفتا كما أشرنا سابقا، معتبرا أن مهمة الذهن التحليل، وكل تحلي يستند على الرموز، وهو منهج

---

[1] – المرجع نفسه، ص 191.

[2] – المرجع نفسه، ص 193.

[3] – محمودرجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1986، ص 250.

العلم، أما الحدس فهو منهج الميتافيزيقا، فهي التعاطف الذي ننتقل بواسطته إلى قلب الموضوع لنندمج مع ما هو فذ فيه،: وبالتالي مع ما لا سبيل إلى التعبير عنه. وعلى هذا " الميتافيزيقا هي العلم الذي يهدف إلى الاستغناء عن الرموز"[1].

لذلك نظر برغسون إلى المعرفة الميتافيزيقية أنها أسمى و أعمق من العلم، ووحد بين الميتافيزيقا والفلسفة، وقابل بينهما من جهة، والعلم من جهة أخرى، معتقدا أن المعرفة العلمية تحكمها المنفعة، أما الفلسفة والميتافيزيقا فهي تأمل خالص، منهجها التجربة الباطنية والروحية، ومصدرها الحدس الذي أساسه التعاطف الروحي أو الغريزة السامية ، مثل هذه الفكرة نجدها عند أرسطو، وعند ابن سينا في الفلسفة الإسلامية، وحتى الفكرة التي تجعل من العلم معرفة عملية نجدها عند بيكون، إلا أن ما تفرد به برغسون هو استخدامه لمفهوم الحدس والذهن، فالحدس منهج الميتافيزيقا والذهن منهج العلم.

الميتافيزيقا عند برغسون هي في أساسها إدراك داخلي للروح بالروح، وهي ثانيا إدراك للماهية التي تكمن في المادة.

ولما نتأملمايعنيه برغسون بالحدس باعتباره وعي مباشر، أو رؤية مباشرة، يصعب تمييزها من الموضوع، المرئي، أو معرفة، معرفة تكون تماسا واتحادا، نجد أن الاختلاف بين حدس برغسون و" نوس" أرسطو هو أن الحدس وموضوعه الروح هما في الزمان ومتحركان، أما النوس فهو يهتم بالأمور الخالدة، ويرى برغسون " أن العيان الذي يتكلم عنه يهتم أولا بالديمومة الداخلية ويدرك التعاقب(...) الذي هو نمو من الداخل وامتداد للماضي في الحاضر الذي يحوز المستقبل هذه هي الرؤية المباشرة للروح بالروح[2].

إن الروح عند برغسون قد وضعت في مكان أقل من مكانة " النوس" عند أرسطو، فبد أن تكو خالدة أصبحت كيان لا صورة له، يتغير في الزمان، بل إنها أصبحت مبدأ مادي لا محدود، إنها بعبارة أخرى ليست شيئا آخر سوى الوعي بوصفه ظاهرة نفسية محضة.

وبهذا المعنى ترتد الميتافيزيقا إلى علم النفس، ليس بوصفه علما وضعيا، ولكن بوصفه استبطانا ذاتيا.

وفي هذا يقول برغسون هناك على الأقل حقيقة واحدة ندركها تماما من الداخل بالحدس وليس بالتحليل هي شخصنا نفسه، في انسيابه، عبر الزمن إنها ذاتنا التي تدوم فقد لا نستطيع أن نتعاطف عقليا أو بالأحرى روحيا مع أي شيء آخر ولكننا بلا ريب نتعاطف مع ذاتنا[3].

---

[1] – المرجع نفسه، ص 251.

[2] – المرجع نفسه، ص 152.

[3] – هنري برغسون، المدخل إلى الميتافيزيقا، ترجمة: محمد أبو ريان، ب ط، 1996م، ص 430.

وينتج من كل ذلك أنه لا يمكننا أن نستحوذ على المطلق إلا من خلال الحدس بينما يرجع كل شيء آخر إلى التحليل، ويطلق برغسون لفظ الحدس على التعاطف الذي ينتقل به المرء إلى داخل شيء ما للتطابق مع ما ينطوي عليه من صفة فريدة[1]، تستعصي لذلك على التعبير، عكس التحليل الذي يعتقد أنه يقو على الرموز. ويخلص برغسون إلى أن " لا يمكن لديمومتنا أن تستوعب في تصوري"[2].

[1] – المصدر نفسه، ص 429.

[2] – المصدر نفسه ، ص 436.